الفصل التاسع
الخيام والشطح الصوفى

يقول القفطى فى تاريخ الحكماء (توفى سنة ٦٤٦ هـ)، إن متأخرى الصوفية وقفوا على شىء من ظواهر شعر الخيام فنقلوها إلى طريقتهم، وتحاضروا بها فى مجالسهم وخلواتهم.

*****

وقال عنه البيهقى فى كتابه حكماء الإسلام : إنه الشيخ المطاع.

*****

وقال عنه محمد السباعى فى مقدمة ترجمته للرباعيات : إنما الخيام كان صوفياً عند فريق من النقاد، ويرمز للذات الإلهية بألفاظ الخمر والساقى والكأس وهلم جراً كحافظ الشيرازى وغيرهما.

وقال عنه الدكتور عبد الرحمن بدوى: إذا اعتبرنا بودلير يمثل نوعاً من التصوف هو التصوف إلى أسفل، فإن حافظاً الشيرازى يمثل تصوفاً إلى أعلى، والخيام فى مركز وسط بين كليهما. وكل ذلك فى داخل التصوف الحسى إن صحّ هذا الجمع بين المتناقضات.

*****

وقال مصطفى الصباحى فى مقدمته لبعض التراجم على الرباعيات: إن الخيام فيلسوف متزهد أو متصوف متعبد كائناً من كان شأنه ـ إنما هو شخص عالمى الفكر، بعيد الآفاق، غير محدود المكانة فى عالم البحث والفلسفة.

*****

وفى الموسوعة الأمريكية: إن شعراء الصوفية لم يجدوا حَرَجاً أن ينهلوا من نبع الخيام. ويبدو أن عمر قد اشتغل بالتصوف، وهناك من يميل إلى تأويل أشعاره تأويلاً صوفياً.

*****

وفى الطبعة الألمانية للرباعيات للدكتور فريدريك أنّ الخمر فى الرباعيات يمكن تأويلها تأويلاً صوفياً.

*****

هذه شهادة البعض وقبل أن نناقشها، نريد أن نسأل أيضاً: هل إذا رفضنا أن الخيام صوفى، وأنه عنى بالخمر والساقى والكأس والحانة رموزاً صوفية ـ إذا رفضنا ذلك فهل يمكن

أن نصف النزعة المتسامية فيه بأنها نزعة إنسانية؟ وهل يكون إنكارنا لتصوفه مصدره شطحاته ضد الدين والله، ورموز الدين من صلاة وصيام وفقهاء، والمفتى إلى غير ذلك مما تحفل به الرباعيات؟

*****

فأولاً: الشطح لايعيب الخيام، فالصوفية الكبار **كالحلاج والبسطامى ورابعة وابن عربى** كان لهم شطحات لها تأويلات يفهمها كل من يتعمق التصوف ويحيط بلغته. والتصوف له مصطلحات كالخمر والسكْر والذوق والصحو والحضور والفقد والفناء والخوف والخواطر والبقاء إلى غير ذلك، ومعانيها خبيئة وتحتاج إلى غواص.

وما أشبه عتاب الخيام بعتاب رابعة فى مخاطباتها لله تعالى حول العذاب والنار وغيرهما. وقول الخيام إلهى قل لى مَنْ خَلاَ من خطيئة، وكيف تُرى عاش البريء من الذنب؟ أو قوله إذا كنت تجزى الذنب منى بمثله فما الفرق مابينى وبينك يارب؟ أو سؤاله لماذا أتيت الكون أو فيم أذهب؟ أو هذا العتاب الشديد: لماذا غداة الرب ركبّ العناصر لم يُحكِمْ تناسبها؟ وإذا كان قد خلق الإنسان على أحسن صورة وفى أحسن تقويم ففيم يكون موته وخراب هذه الصورة؟ وإن لم تكن قد راقت له فخّربها - فممن أتى العيب؟ أو تساؤله: إذا كنت الغفور فحتماً ستغفر للخاطئين لأن غيرهم لايخطىء؟ وقوله : سيُغفر لى إذن حتماً ولاموجب للخوف!، أو قوله: لو كانت لى مشيئة الأقدار لأعَدْتُ خلق العالم على الاختيار لا على الجبر، ولغيّرت المقدورات بما يسعد الخَلْق: أو سؤاله: هل زادت طاعته لله من مُلكه؟ وهل أنقصت خطاياه منه؟ أو قوله: سأمتحن العصيان لك يارب مائة مرة، لأعلم هل ذنبى أم سماحك أجزل؟ أو: أن الله قد نصب الشباك فلّما وقع فيها الإنسان حاسبه بالذنب أو: إننا نفعل ماقضى الله به منذ الأزل فلماذا يحاسبنا؟ - كل ذلك الشطح لايدل ربماعلى كفر أو ضلال أو تجديف فى حق الله، ولكنه قوة انشغال بالدين وتنزيه لله عن كل نقص وعيب، وهو ماتؤكده رسالاته الفلسفية، وقد أجاب فيها عن كل هذه التساؤلات أو المعاتبات أو الخواطر التى ربما راودته فبحث فيها، أو ربما سئل فيها فاقتضى ذلك منه الجواب.

وثانياً: القول بأن الخيام كان **إنسانى النزعة** لأنه كان مهتماً بالإنسان ذاته ولاشىء سواه، تدحضه فلسفة الخيام ذاتها كماطرحها فى الرسالات، فالواضح أنه يعالج فيها مسائل الوجود، ولكنه عالجها باعتبارها متصلة بالإنسان الموجود والذى حضوره فى الوجود ملموس.

وشبيه بذلك فلسفة هايدجر الذى كان يولى بحثه الموجود الإنسانى الذى اعتبره أصل الوجود. غير أن هايدجر لم يؤمن بالله، ولم يعترف إلا بالوجود الإنسانى، وقال إن كل شىء فى هذا الوجود للإنسان ، وأنه لاشىء خارج الإنسان، وأنه معيار كل تقويم، وأن وجوده هو الوجود الحق، وأنه وجود آنى أى فى الدنيا وليس بعد ذلك شىء. فالإنسان وتر مشدود بين الوجود والعدم وليس بعد ذلك شىء.

فهل كانت هذه نزعة الخيام التى نستخلصها من كتاباته كلها، بل ومن الرباعيات بخاصة؟ ألم يكن يحور ويدور حول الإنسان، واصفاً قلقه وآلامه وهمومه وأحزانه ومايرين عليه من أحكام وأقدار، ثم ينتهى إلى التوبة والندم والإقرار بالله؟

ألم يحاول الانتحار كما يقول هو نفسه لولا مُسكة الإيمان؟... **وهذا الإيمان بالله هو نفسه ضد النزعة الإنسانية**، فالنزعة الإنسانية ملحدة وليست لذلك نزعة إيمان.

وقيل إن النزعة الإنسانية كانت عند صوفية من المسلمين كابن عربى الذى قال بالإنسان الكامل. والخيام لم يكن أبداً يبشر بكمال الإنسان ولكنه **كان يحكى عن عجزه ونقصه وقلة حيلته وجهله وعدم درايته وفقره ووقوعه صريع الشهوات والأمراض**.

وكانت الرباعيات الخيامية الحقيقية صبوات إشراقية صوفية، فيها استشراف للمطلق ورغبة فى العلو والسموق، وفيها البحث عن المتعالى والتفتيش عن **الإنسان العابد لا الإنسان الملحد**.

ولم يكن الخيام يعجبه فى قصة الخلق إبليس وسورة الاستكبار التى أبداها ومطروحاته من العبارات السوفسطائية، وعلى العكس كان غرامه بالإنسان، هذا الموجودالذى خلِق للمعرفة، وكانت خلقته من طين وروحه من الرحمن، فكان صريع العنصرين، وقلبه الصغير مسرحاً لأكبر معارك يمكن أن تقع فى تاريخ الوجود، وميداناً تدور فيه الحروب سجالاً بين الشر والخير، وعقله هذا المسجون فى زنزانة الرأس والذى ينبض فى بطن الظلام بومضات من النور، يشرئب خارج سجنه ويطول بفكره السماء ويعانق الشمس فى أقصى الأفق.

والخيام فى الفلسفة الإسلامية وجودى وإشراقى ومتصوف وفيلسوف متألّه وحكيم، بدأ بالمعارف الرياضية ومسائل الكم والعدد والحساب، وذهب بفكره إلى الأفلاك، فقاسها وعرفها وأحكم القول فى علاقاتها بالأقدار، ثم تجرّد فدرس الفلسفة وبحث فى الوجود والخلْق والحرية والجبر والاختيار، وارتقى إلى التفكير فى الله، ثم الشعور به، فكأنه كان الأرضى فى

حياته الأولى، ثم توسط بين الأرض والسماء، وأخيراً بلغ الذرى فى تجربته الصوفية الذوقية.

ورباعيات الخيام الصحيحة هى تحليل للوجود الذاتى - قد نقول إنه وجود الخيام نفسه، وقد نقول إنه كل وجود ذاتى على مايقتضيه الوجود. وقال الخيام بالعقل الجزئى فى الرياضيات، ثم العقل الكلى فى الفلسفة، وأخيراً عرف **الحدس الصوفى** الذى يحكى عنه فى رسالة التكاليف وبلغ به اليقين بوجود الله.

وفى رسالته الفارسية عن **كليات الوجود** والتى أسماها المؤرخون **رسالة روضة القلوب** نزولاً على رأى فخر الملك ابن الوزير نظام الملك، صنّف الخيام الطالبين لمعرفة الله أصنافاً **أربعة** هم : **المتكلمون والفلاسفة والاسماعيلية والمتصوفة**، ورجّح مذهب القائلين بالتصوف على سائر المذاهب، وقال عنهم وعن طريقتهم: إنهم لم يطلبوا معرفة الله عن طريق الفكر والبحث، وإنما عن طريق تصفية الباطن وتهذيب الأخلاق، فنزّهوا النفس الناطقة عن كدورة الطبيعة والهيئة البدنية، فإن هذا الجوهر لمّا تنزه ووقف أمام الملكوت ظهرت صور التحقيقات. وقال : **تلك الطريقة هى أفضل الطرق**، فقد يُعلم أن أى كمال من الكمالات غير ممنوع من حضرة الله سبحانه، بل كلها مسموحة. ولامنع ولاحجاب للإنسان إلاّ من كدورة الطبيعة. كما عُلم أنه إذا زال الحجاب ابتعد المانع، فإن حقائق الأشياء تظهر عند ذلك كما هى، وإلى هذا أشار **الرسول صلى الله عليه وسلم** حيث قال: إن لربكم فى أيام دهركم نفحات - ألاَ فتعرّضوها.

ولم يكن الخط الأساسى الذى سارت عليه الرباعيات إلا ما قاله **ابن عربى** فى التصوف: إنه إماطة السوى والكون عن القلب والسر- يعنى رفع الأغيار وعالم الكون والفساد عن الذات، واستصفاها للحضرة الإلهية، بردّ وجودها والوجود بأسره إلى الله تعالى.

وهذا الخط نفسه استنّه آخرون لأنفسهم بعد الخيام - والسلوك مُعْدٍ كما يقولون، فهكذا فعل **النظامى** (المتوفى ٥٩٦ هـ) **وحافظ** (المتوفى ٧٩٢ هـ) كمثالين من أمثلة كثيرة لشعراء إيرانيين كانت لهم نفس الإشراقات.

ويبدو أن الخيام كان أصيلاً ورائداً فى ذلك الطريق فاعترف به كثيرون إماماً للشعر الصوفى، وإن كان قد أوغل فى الرمزية أكثر من غيره حتى كاد التصوف أن لايبين عنده، فاختلفوا فى أمره بين مقرٍ لتصوّفه، وبين مُنْكر عليه.

ولست أحسب أن أحداً من النقاد يشك فى تأثير الخيام على الشعراء اللاحقين ولقد

أقسم النظامى ـ الذى قيل فيه أنه مقلد للخيام ـ أنه ماذاق الخمرة فى حياته، وأنّ كل ما أحلّ الله حرامٌ عليه لو كان لوّث فمه يوماً بشُرب الخمر. ونعرف مقصود الخيام من ذِكرْ الخمر فى الرباعيات من مقصود مَن قلدوه كالنظامى وحافظ. والنظامى أخذ ببنائه العَقَدى فى الرباعيات، فكان يذكّر بالموت هو أيضاً، ويحث على الأخلاق الفاضلة وعدم اتبّاع الهوى والزهد فى الدنيا. ولم يكن الموت يزعجه كما قال، وكان يكثر فى شعره من المناجيات والتوبة، ويكرر طالباً العفو. ولربما يخطر السؤال ـ يتوب عن ماذا؟ والنظامى يجيب كالخيام : الخواطر والوساوس، والأسئلة التى لا معنى لها ولاجواب عليها حول القضاء والقدر، وذات الله، والعقاب والثواب، والجنة والنار، والقِسمْة والأرزاق والحظوظ. خواطر آثمة، ووساوس من الشيطان، ونزغات تورد الهلكة.

وحافظ هو أيضا كان مقلداً للخيام، وكتب إلى صديق له معاتباً أن السكْر المادى لم يطرأ على باله ولا دار بخلده، ولكنه قصد بالسكْر العشق لله والشوق إلى معرفته.

وإذن فألفاظ الخمر والساقى والزنار والحان والشُرب والكأس والندامى، والمجالس فى الفجر والصباح والظهر والعصر والعشاء، وفى كل آن وحين، ليس ذلك كله إلاّ رموزاً لها خبىء، ولاتشير إلا لمعنى واحد، وتنتهى إلى سرّ واحد، هو معنى وسر الموجود الواحد، واجب الوجود، الله المتعالى ذى الجلال، فالمُدامة هى مدامة حب الله، والسكْر هو الاستغراق فى الذكر، والنُدامى هم إخوان الطريق، والقضاء والقدر والشر والموت تذكيرٌ بقدرته تعالى وَتَفكُرٌ فيه يُختص به أولو الألباب.

وعندما نحيل إلى رسالة الخيام فى الوجود، فإنما لننبه إلى فلسفة الخيام الوجودية. والخيام يقول إن الوجود قد صدر عن الله تعالى، إلا أن الماهية تابعة للوجود فى الخارج، ومتبوعة له فى العقل، ومعنى ذلك أنه يؤكد على الوجود كتَعيُّن حقيقى، وعلى الماهية كاعتبار عقلى. وذلك لعمرى صميم فلسفة القرن العشرين الوجودية، إلاّ أن الخيام يقر منها فلسفة الإيمان عن فلسفة الإلحاد، فهو يجعل لله الوجود المطلق، واتخذ الزهد طريقاً كالمتصوفة، ولاننسى قوله: إن طريقهم هو أفضل طريق.

والخيام كمتصوف وجودى مهموم بالموت، وتصيبه من ذِكْره قشعريرة، ويلحقه من التفكير فيه قلق، ويستشعر بذاته تنزلق منه كلما اشتدت عليه خواطر الموت والفناء والعدم فيرين عليه بُحران، وكأنى به كيركجارد يعيش بين المسلمين فى القرن الرابع الهجرى، وتضيق نفسه

بقضايا الوجود حتى ليبغض فى نفسه أن يستمر فى الحياة ويفكر فى الانتحار. يقول الخيام:

قلبى فى صدرى أسير سجين * تخجله عشرة ماء وطـين
وكم جرى عزمى بتحطيمـه * فكان ينهانى نداء اليقين

ولم ينتحر الخيام، فالانتحار ليس كالموت ومن ثم ليس من القضاء. والموت والانتحار كلاهما فعل ينتهى به كل فعل وتكون بهما نهاية الحياة. وكلاهما إمكانية مغلقة، إلاّ أن المنتحر يمارس حريته فى أن يحيا أو يموت، بينما المائت يجهل الموت ولايعرف عن كنهه، ولامتى يكون، ولا بأى أرض، ولاكيف يكون. ورغم أنه قَدَّر مقدور على الجميع فهو شخصى وذاتى، فالذى يموت يموت وحده ولايموت عنه آخر. والموت حَدَثٌ قوى للذى لديه الوعى به والمُدرك لشخصيته والمؤكد لذاته. وكلما قويت شخصيته كلما ازدادت معاناته بالتفكير فيه. والشخصية لاتكون قوية إلا عندما تستشعر الحرية، والذى يؤلمه الموت فإن ألمه يشتد لأنه يقضى على حريته، وعلى ذاتيته، ولهذا لايمكن أن ينتحر أمثال الخيام ـ هؤلاء الشعراء الوجوديون وفلاسفة الوجود ـ الذين يواجهون بفكرهم مشكلة الموت وتقضّ مضجعهم وتطيّر النوم من عيونهم.

ولايمكن أن يعنى تفكير الخيام فى الانتحار وتقاعسه عن إتمامه، مع قوة شخصيته وعلّو همته ورجاحة عقله، إلاّ أنه كان شديد الإيمان بالله، وأنّ مُسْكة الإيمان هذه تميزه كوجودى ضمن الوجوديين. وليس معنى اليقين الذى يناديه فى الرباعية السابقة إلاّ الله تعالى واعتقاده فيه كواجب الوجود. وذلك برهان مابعده برهان أن الخيام لم يعن بالخمر أنها ابنة الكرم المادية المعصورة من العنب والتى تصّب فى الكاسات، وأنه لم يكن يقصد بها إلاّ المحبة والعشق لله سبحانه. يقول: كيف يحوم القلب يوماً على غيرك أو يبغى هوى مع هواك؟ ويقول: إن دموعى لم تدع عينىّ لحظة ترنو لحبيب سواك! ـ ويقول: أنا عبدك العاصى فأين رضاك؟ ولقد دجى قلبى فأين سناك؟ ـ ويقول: إن لم يكن ربى قد شاء ماشئت، فهل أنا أستطيع أن أفعل إلا ذاك؟ وإن يكن الله قد شاء الصواب، فما شئته من سواه كان خطأ كله! ثم ينشد:

يا مَن يحار الفهم فى قدرتك * وتطلب النفس حمى طاعتك
أسكرنى الإثم ولكننى * صحوت بالآمال فى رحمتك

*****

إن لم أكن أخلصت فى طاعتك * فإننى أطمع فى رحمتك
وإنما يشفع لى أننى * قد عشت لا أشرك فى وحدتك

*****

يارب فى فهمك حار البشر * وقصَّر العاجز والمقتدر
تبعث نجواك وتبدو لهم * وهم بلا سمع يعى أو بصر

*****

بينى وبين النفس حرب سجال * وأنت ياربى شديد المحال
أنتظر العفو ولكننى خجـ * ـلان من علمك سوء الفعال

*****

تخفى من الناس سنا طلعتك * وكل ما فى الكون من صنعتك
فأنت مجلاه وأنت الذى * ترى بديع الصنع فى آيتك

*****

ياعالم الأسرار علم اليقين * ياكاشف الضر عن البائسين
ياقابل الأعذار فئنا إلى * ظلك فاقبل توبة التائبين

*****

واستطاع الخيام فى أواخر حياته أن يحقق فى نفسه الفناء عن أوصافه المذمومة، وأن يفنى عن الخلق، وعن التردد إليهم كما يقول القفطى، وقد يئس مما لديهم، وزهد فى دنياهم. وكانت علامة فنائه تركه للتكالب على الدنيا، والتعلق بالأسباب فى جلب المنافع ودفع المضار، وصار يتمثل الله فى كل مايفعل ويؤمن. وكانت علامة فناء إرادته فى إرادة الله تعالى أنه كفّ عن أن يريد، وعن أن يكون له غرض أو تقف له حاجة أو مراد، وسدّ بابه عليه، وأقفل فمه، كقول القفطى أيضاً، وأبطل كل رغبة وإرادة مع إرادة الله، ولما قارب الموت كان كما روى عنه الشهرزورى - يقرأ فى إلهيات ابن سينا، وكان صائماً عن الكلام والطعام، وقائماً فى حضرة المولى يصلّى، لايرى أحداً سواه، وأبدى الاعتقاد أنه لاشىء مع الله، ولايعلم إلا هو.

وكان كالفانى عن نفسه، الباقى بالله. وكان آخرماقال رائعته بل إعجازه: «**اللّهم إنك تعلم أنى عرفتك على مبلغ علمى، فاغفر لى، فإن معرفتى إياك وسيلتى إليك**».

ولايعيب الخيام أنه استخدم الخمر كرمز للعشق أو المعرفة بالله، أو للغفلة أو لحب الذات، أو غير ذلك مما بسطنا القول فيه فى الفصول السابقة، فهكذا فعل ابن **الفارض** شاعر المحبة الإلهية، وهو من هو فى التصوف، فقال:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة * سكرنا بها من قبل أن يُخلق الكرم

وقال:

ففى حان سُكْرى حان شكرى لفتية * بهم تمّ لى كتم الهوى مع شهرتى

وقال:

فنادمت فى سُكْرى الذهول مراقبى * بجملة أسرارى وتفصيل سيرتى

وقال:

أدر ذكر مَن أهوى ولو بملام * فإن أحاديث الحبيب مدامى

وقال:

وفيها حلا لى بعد نُسْكى تهتكى * وخلع عذارى وارتكاب آثامى

*****

وكم يشبه ابن الفارض (٥٧٦ هـ) الخيام (٥٢٢ هـ) عندما يقول مثله **الغرام هو الحياة، والحب سكْرة**. ويعلم الله أن ابن الفارض ما ذاق الخمر ولاعرفت طريقها لفمه، ولكنه الأدب والفلسفة!!

*****

وأيضاً يذكر «**سِفْر نشيد الأناشيد**» من التوراة رموزاً جنسية، وفيه من الخمر الكثير حتى يصعب تأويل ذلك حتى على شارحى هذا السفر، ومع ذلك ينشدونه فى الكنائس والمعابد لأنه إن لم يكن كلام الله فهو وحيٌ إلى أوليائه وهم يتأولون فيه الجنس.. فلماذا لا نتأول الخمر عند الخيام؟ ولماذا الإصرار على أن نحسبها الخمر الحقيقية، إلا أن يكون القصد الطعن فى الخيام والإسلام كما جرى الطعن فى هذا النشيد وغيره من التوراة!

يقول النشيد : ما أجمل خطواتك يابنت الأمير. دوائر فخديك كَحُلِيٍّ صاغتها يدا صانع

حاذق. وَسُرَّتُكِ كأس مدورة... وبطنُكِ صُبْرة حنطة، وثدياكِ كَخِشْفَيْ ظبية توأمين.. وعنقك. وعيناك.. وحلقك كخمر طيّبة تسوغ بلذة لحبيبى وتسيل على شفاه النائمين!! (الفصل الرابع).. ليقبلنى بِقُبِلِ فيه فإن حبك أطيب من الخمر! (الفصل الأول).

*****

وبعد.. فقد كان هذا هو الشأن مع الخيام فى خمرياته غير المنحولة، ومع رموز الخمر والكأس والساقى وغيرها، ومع التصوف عموماً.. وأرجو أن أكون قد وفيّته.

وبقيت كلمة عن رأى العلم فى إدمان الخمر وتأثير الإدمان على شخصية المدمن، وفِكْره وعمله ووجدانياته. وهو ماسنتناوله فى الفصل القادم بإذن الله.

*****